

## النظم بين عبد القاهر الجرجاني ومصطفى صادق الرافعي: نحو رؤية متكاملة للإعجاز

محمد عاشق مونغم\*

### الملخص:

إن العالمين الجليلين عبد القاهر الجرجاني ومصطفى صادق الرافعي قاما بخدمة كبيرة في مجال الإعجاز القرآني خلال مؤلفاتهم وأفكارهم البناءة، وهذه الأفكار مما تضيفها نفعاً نوعياً في فهم الإعجاز والوصول إلى مستوى شامل من الإدراك عنه، ومقارنتهما طبعاً ستثمر نتائج إيجابية في توسيع ذلك الإدراك وتوضيح بعض الإشكالات الواردة عن الإعجاز، ورغم تباعد الزمن بين عبد القاهر الجرجاني ومصطفى صادق الرافعي واختلاف عوامل تكوينهما هناك بعض المشابهات لاستعمالهما كلمة "النظم" رغم اختلاف المفهوم عند الاثنين وأيضاً بسبب تناولهما قضية اللفظ وجرس الحروف من جهة الإيجاب والسلب، فهذا البحث يحاول لمقارنة منظور الإعجاز والنظم عند عبد القاهر الجرجاني ومصطفى صادق الرافعي وعوامل الاختلاف بينهما، وقد توصل البحث إلى أن نظم الجرجاني يدور حول "الإعجاز البلاغي" والتركيب أكثر حينما يتجه الرافعي في نظره عن النظم إلى ما يمكن أن يسمى بـ "الإعجاز الأدبي" لأنه يعتبر في تنظيره عن الإعجاز النص كاملاً من

---

\* باحث في قسم القرآن وعلومه، جامعة دار الهدى الإسلامية  
البريد الإلكتروني: ashqmongam786@gmail.com

الكلمة والمعنى والتركيب والروابط بينها وموسيقية الحروف، وكلا هذين الاتجاهين مما سيشهد بفوقية نص القرآن على سائر النصوص الأدبية والفكرية.

## المقدمة

إن الإعجاز القرآني موضوع حي في حقل الدراسات القرآنية قديما وحديثا، وقد شهد العصر الحديث مباحث ومناقشات بين الدارسين في الإعجاز البياني وماهيته، وظاهر أنهم لا يطلقون كلمة الإعجاز البياني على شيء واحد، بل آراؤهم واتجاهاتهم مختلفة تماما حسب اختلاف مداركهم العلمية، هذا مع ما ظهر في عصرنا من التوجه الكبير نحو الإعجاز العلمي التجريبي، وقد صدرت كتب ومؤلفات لعرض تلك الآراء والبحوث ونقدها وبالإضافات إليها، ومن هنا لاحظ الباحث أن لهذه الاتجاهات أسباب زمانية ومكانية وحضارية، وهي التي بعثت هؤلاء العلماء ليتجهوا نحو منعى معين ويرفض الآخر أو ينقده.

فالإمام الجرجاني والرافعي رحمهما الله عاشا في زمنين مختلفين تماما وتأثرا بروافد مختلفة في تكوين نظيرتهم الإعجازية، وسيحصل من بين المقارنة التي أحاولها في هذا البحث فهم أسباب التوافق والاختلاف التي شكلت هيكله فكرهما عن الإعجاز القرآني، ومن هنا ستتضح السبيل لصياغة نظرية إعجازية متكاملة لما في نظريهما إلى الإعجاز من شمولية وعمق في الإدراك.

## المبحث الأول: مقارنة منهج الرافعي والجرجاني

عبد القاهر الجرجاني، ذلك العملاق اللغوي البلاغي، قام بمهمة جلييلة في إرساء نظرية النظم كقاعدة لفهم التراكيب اللغوية وفهم النصوص خلال كتابه دلائل الإعجاز، فكان يحاور في كتابه مع تيار اللفظ الذي حاز مكانة قوية في تذوق النص، وحاول إرجاع ذلك إلى المعنى والنظم، وأيد إعجاز القرآن بدلائل كلامية ولغوية، وهو

في كتابه "الدلائل" يبدو مسترسلا في فكرته، لأنه يتحدث عن النظم في مختلف جوانب الكتاب من وجهات مختلفة. ورغم ذلك لقد نجح في نظري في بيان النظم وأساسه الفلسفي والإتيان بأمثلة كافية من الشعر والقرآن، وفي بداية الكتاب خصص فصلا في بيان فضل علم البيان والشعر وعلم النحو والدفاع عن هذه العلوم، لأنها أساس أو مادة في بيان نظرية النظم، ثم يدخل إلى سبب تأليف الكتاب والبيان عن الفصاحة والبلاغة، وفيه البيان عن نظرية النظم، ثم يدخل إلى التطبيقات في أبواب البلاغة:

1. التقديم والتأخير
2. الحذف
3. فروق في الخبر
4. فصل في الذي
5. فصل في فروق الحال
6. الفصل والوصل

ثم يرجع إلى أمر اللفظ والنظم ويعيد القول فيه من جهة أخرى ويضع فصلا في أمر "المعنى" و"معنى المعنى" وفصلا في المجاز الحكمي والكناية ثم فصلا عن "إن" ومواقعها وعن القصر والاختصاص، ثم يعود إلى مسألة النظم واللفظ والإعجاز والاستعارة ثم يتحدث عن أصل اللغة في آخر الكتاب وأن المعاني موجودة قبل الألفاظ، وأردف للدلائل كتابه "الرسالة الشافية" بين فيه الدلائل الكلامية والحجاجية عن الإعجاز القرآني، وهو كتاب قيم في بابه، والكتاب الثاني للجرجاني "أسرار البلاغة" يتحدث عن علم البيان وقليل من علم البديع بطابع عام، وهو يرجع الحسن في ذلك كله إلى النظم.

والرافعي رحمه الله بحث عن الإعجاز في كتابه "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" الذي هو جزء من كتابه "تاريخ آداب العرب"، وقد بدأ كتابه هذا بالتفصيل عن معنى القرآن الكريم وتاريخه والقراءات والقراء ووجوه القراءة والأحرف السبعة ونحوها من المباحث مما هو تمهيد لتفصيله عن إعجاز القرآن، ولم ينس أن يفصل عن طبيعة اللغة القرآنية والأخلاق والعلوم في القرآن ثم يدخل إلى موضوع الإعجاز، ويكتفي بإشارات موجزة عن أقوال العلماء في الإعجاز مع بيان رأيه حولها، ويصل إلى حقيقة الإعجاز وأسلوب القرآن تمهيدا لنظرية نظمته في القرآن من حروفه خلال كلماته إلى تراكيبه مع صوت الحس وروح التركيب الواحد المتلائم في جميعه.

ونحن نرى في منهجي الرافعي والجرجاني اختلافات منهجية في تناول المواضيع، والسبب الأول البديهي لذلك هو تباعد الزمان بينهما واختلاف بينهما الحضارية والثقافية، وإذا زدنا في النظر نرى أن ما قدم الجرجاني رحمه الله كتابه قبل دخوله إلى البحث عن نظرية النظم هو الكلام حول علم النحو والبيان والشعر، وذلك لأن فكره يدور على ذلك، لأن نظم الجرجاني هو علم معاني النحو ومنه يتفجر البيان ويصل إلى الشعر، فالشعر مادة علم المعاني، إذ هو ميدان البلاغة والأدب، وإذا نظرنا إلى الرافعي فقد قدم قبل نظرية النظم عنده عن مسائل تعينه في بيان ذلك، فهو يبين القرآن هكذا:

"ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة" ويقول "ومعان بينما هي عذوبة ترويك من ماء البيان، ورقة تستروح منها نسيم الجنان"، ورغم الطابع الأدبي في هذا النص هو تقديم لمفهومه عن النظم، لأنه ينظر إلى القرآن خلال موسيقية حروفه مع بقائه على بلاغته الرفيعة، ثم المباحث التي قدمها تدور حول الإظهار الصوتي في القرآن من القراءة والتلحين فهو مما يؤيد

نظريته وحول طبيعة اللغة العربية، وخلال تلك المباحث أيضا يركز نظره على جانب الصوت.

### المبحث الثاني: حقيقة الإعجاز بين الجرجاني والرافعي

إن حقيقة إعجاز القرآن هي كون معارضة القرآن غير ممكن أصلا حتى لا يسأل سائل إمكانية واحد من الناس في عصر من العصور المقبلة بالنجاح في معارضته، وهذا التفسير مجزئ في علم الكلام، وهنا نبحت حقيقة الإعجاز عند الجرجاني والرافعي رحمهما الله، ولا ريب أن فهمها لها مما يؤثر نظرها إلى الإعجاز.

ينظر عبد القاهر الجرجاني إلى الإعجاز من جهة تاريخ العرب في عجزهم أمام القرآن ومن جهة النص نفسه، أي إذا فشل العرب فقد فشل العالم كله، ولكنه بحث أيضا عن مناط التحدي في القرآن وحصرها في البلاغة والفصاحة لأن مناط التحدي يجب أن يكون مما يظن أن يقدر عليه هؤلاء العرب وأن يكون في جميع القرآن، ولذلك حصر الإعجاز في البلاغة والنظم، والرافعي رغم أنه استعمل كلمة الإعجاز الأدبي لأخلاق القرآن قدم نظم القرآن كخاصية القرآن ووجه إعجازه المتفرد، ومن هنا نقول إن الرافعي وإن لم يتعهد أن لا يسمي غير الإعجاز البلاغي ب"الإعجاز" بحث في كتابه عن وصف تجدد في القرآن دون غيره من النصوص وعن شيء عام في جميع القرآن.

### المبحث الثالث: الأدب والبلاغة والإعجاز

ومن المهم أثناء المقارنة بين الجرجاني والرافعي في نظريتهما إلى الإعجاز بيان مفهوم الأدب والبلاغة وعلاقة ذلك بفهمهما عن إعجاز القرآن، فالبلاغة والفصاحة والبيان كلمات ترد في كلام عبد القاهر كثيرا، وهو يستعملها مترادفة لمعنى واحد، ولم يتحدّد لهذه الكلمات معنى إلا بعد عبد القاهر، وذلك في "مفتاح" السكاكي

و"تلخيص" القزويني وشروحه، يقول عبد القاهر أنه لا معنى لهذه الكلمات التي توصف بها الألفاظ إلا باعتبار ذلك في الكلام كله، وذلك بحسن دلالاته وتبرجها في صورة هي أبهى وأزین وأنقى وأعجب وأحق بأن تستولي على هوى النفس.

ولا يمكن هذا إلا بأن يظهر المعنى على كماله ونختار الألفاظ الخاصة به، وهذه البلاغة لا تأتي على رأي عبد القاهر إلا على نظرية النظم، وقد أشار الدكتور مندور أن مشروع عبد القاهر يتضمن فلسفة لغوية ونقدا يقوم على تلك الفلسفة ثم يحكم على ذلك بالذوق الإنساني والإحساس الأدبي، يلخص الدكتور محمد مندور نظرية النظم عند عبد القاهر في أبعاد فلسفتها اللغوية والنقدية والذوقية: "هذا هو منهج عبد القاهر، فلسفة لغوية ترى في اللغة مجموعة من العلاقات ونقد يقوم على تلك الفلسفة، فيرى أن الألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب"، ومن ثمّ فالأساس هو النحو على أن يشمل النحو علم المعاني وأن يعدو الصحة اللغوية إلى الجودة الفنية، وفي النهاية تحكيم الذوق فيما تحيط به المعرفة ولا تؤديه الصفة من إحساس بجمال لفظ في موضع خاصّ أو فطنة إلى قوّة رابطة أو أداة في جملة أو بيت شعر دون غيرهما، وأما غير ذلك فعبد القاهر يرفضه ولا يقبل منه إلا ما كان فيه تقوية للمعنى أو إيضاح" (النقد المنهجي عند العرب في الأدب واللغة، ص 337-338، طبعة نهضة مصر، 2008)

وهنا يجب أن نحزّر معنى النقد والبلاغة، هل هما مترادفان أو متغايران؟، فالبلاغة تتناول التراكيب اللغوية حينما النقد يدخل داخل التراكيب إلى روح النص بكليته، فالبلاغة من النقد ومن عناصرها المهمة (مقالة د. جابر عصفور طه عن النقد والبلاغة، 7 المحرم 1444هـ - 25 أغسطس 2022م)، والبلاغة ربما لا تفي بغرض النقد لتوقفها على التراكيب، وعبد القاهر في كتابه الدلائل يعنتي بالتراكيب

وكيفية تعبير المعنى بتعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض، وهذا هو البلاغة. ولكن تكمن في نظرية النظم نظرية نقدية شاملة كما أشار إليه الدكتور محمد مندور.

وعند عبد القاهر الجرجاني الكلام البلاغي هو تعبير عما في ضمير المعبر على أكمل وجه، وهنا ينظر إلى شخصية المعبر، ولا بد في الكلام البليغ أن يكون المتكلم فصيحاً بليغاً ليكون معنى معناه جميلاً على المستوى الأول، ثم يعبر ذلك المعنى على أتمّ وجه، وعند ذلك يظهر الجمال البلاغي، فأما الكلام الصادر عن غير البليغ على أتمّ ما أراداه ليس إلا كلاماً ساذجاً، وهو خارج عن مبحث البلاغة والأدب، والذوق هو الوحيد الذي يعرف على جمال نظم كلام البليغ.

ويلوح هنا الغموض في فلسفة عبد القاهر عن الجمال الأدبي، وهو لم يبين عن سبب تأثر الإنسان بهذا الجمال ويراه أمراً بديهياً وليس ذلك من مشروعه أصلاً بخلاف المعاصرين ومنهم الرافعي، الذين يبحثون عن سبب تأثر الإنسان بهذا الجمال، وهذا أحد الفروق بين عبد القاهر والرافعي في فكرهما عن الإعجاز، وسنبين ذلك إن شاء الله.

ولندخل إلى فكر مصطفى صادق الرافعي عن الأدب والبلاغة أو البيان، يعرف البلاغة في مقدمة كتابه حديث القمر كما أشرنا إليه سابقاً أنّ "البلاغة التي حار العلماء في تعريفها على كثرة ما خلطوا لا تعدو كلمتين: قوة التصور، والقوة على ضبط النسبة بين الخيال والحقيقة؛ وهما صفتان من قوى الخلق تقابلان الإبداع والنظام في الطبيعة، وهما صار أفراد الشعراء والكتّاب يخلقون الأمم التاريخية خلقاً، ورب كلمة من أحدهم تلد تاريخ جيل" (حديث القمر، ص 9، طبعة هنداوي)، فالبلاغة إذن قوة التصور للغرض الأدبي وخلق العمل الفني حافظاً على النسبة

الصحيحة بين الخيال والحقيقة على نظام بارع كما خلق الله هذا العالم على أتم وجه.

فقد فصل مصطفى صادق الرافعي هذه الفكرة في كتابه "وحي القلم" في مقالة اسمها "الأدب والأديب"، فالخيال الإنساني كما بينه فيها تقليد من النفس للألوهية بوسائل عاجزة، إنها تقدر على التصور حسب ما يتحسس من كمال خلق الإله دون تحقيقها وإيجادها، والإنسان في خياله الأدبي يشعر الغموض والغيب في كل ما يراه ويتحسسه، وفي كل معنى في الحق معنى خيالي أيضا، وهو الموطن الذي يتفجر عنه الأدب والبيان، وهو بمنزلة يناع الثمرة ونضجها في تحوله من استعمال بارد إلى خلق أدبي ممتع، وهذا هو الأصل في جميع اللغات الإنسانية.

والغرض الأولي للأدب والبيان هو أن يصنع عالما من المعاني الخيالية موافقة لميل النفس الإنسانية إلى المجهول والغيب والغموض، ومادة الأدب تكمن في أشواق النفس الإنسانية وتقوم عليها، لأنه يشعر فيها لذة بلا جهد وأما بلا تكليف، والإنسان لا يشعر الكمال النفسي ولا يعيش في الخلود إلا في ساعات من حياته، وذلك من حبيب مفتون وصديق طيب الروح وقطعة أدبية ساحرة ومنظر فني رائع، وأساس الفن الحقيقي هو "ثورة الخالد من الإنسان على الفاني فيه وأن تصوير هذه الثورة في أوهامها وحقائقها بمثل اختلاجاتها في الشعور والتأثير هو معنى الأدب وأسلوبه".

والإنسان يطلب في حقيقته أربع صفات عالية، وهو لا يجدها في العالم الذي يعيشه، ويبأس من جفاف هذا العالم ويطلب الكمال والإشراق، حتى يفجر ذلك معين الأدب، لأنه يجد فيه بغيته، لأن الأدب والفن يقوم على أربعة أصول:

1. الاتساق في المعاني خلاف الاضطرابات التي نعيشها في الحياة



2. الخير في الغرض الذي يساق له الأدب بخلاف الأثرة في حياة الإنسان
3. الحق في الفكر الذي يقوم عليه بخلاف النزاع الذي نعيشه في الحياة
4. الجمال في التعبير الذي يتأدى به بخلاف شهوات الإنسان التي تنهشه

يقول مصطفى صادق الرافعي: "ولا معيار أحق منها إن ذهبت تعتبره بالنظر والرأي"، وهنا يبين الرافعي سبب تأثر الإنسان بالأدب والكلام الرفيع بخلاف الجرجاني، وذلك لأن الإنسان يطلب "المثل الأعلى" بحد تعبيره، وهو الغاية الأخيرة للأدب الحقيقي، فيشعر الإنسان القارئ جنة المعاني في داخله، فيشربها ليشفي غليل روحه، والأديب ذلك الإنسان الكوني "الذي يدلله الجمال على نفسه ليبدل غيره عليه"، والعالم فكرة حينما الأديب فكرة وأسلوبها، وهو يرى العالم أجزاء مملوء بالحياة والفكرة والصورة حينما يرى غيره مجموعا في قالب واحد ولا يتحسس أسرارها.(أنظر وحي القلم، الجزء الثالث ص 979)

ومن وظيفة الأديب تصحيح النفس الإنسانية ونفي التزوير عنها وإخلاؤها مما يكدر صفوها عقيدة وفكرا وشعورا والسمو بها إلى الفوق، لأن من خصائصه التمييز والنظرة الثاقبة والخيالات البارعة والإخلاص للإنسانية كلها لتجمعها على كلمة الحق والجمال والاتساق والخير، والأدب من هذه الناحية شبيه بوظيفة الدين الصحيح، والاستمتاع بالأدب وتذوق أريححته غير التلمي به، لأن الإنسان يتذوق ذلك المثل الأعلى من جمال أسلوبه واتساق معانيه، وذلك شبيه بتغذية الإنسان نفسه لأنه يتمتع حين الغذاء وفي نفس الوقت ذلك منفعة ونعمة عليه.

رأينا أن البلاغة عند مصطفى صادق الرافعي هو التعبير للجمال الفني الصادر من طلب الإنسان للمثل الأعلى الذي يتفقدته في الحياة، فإذا كان المعبر قادرا بليغا سيكون كلامه في مستوى تعبيرى رفيع، وهو يخلق الأدب الذي يسوق الإنسانية

إلى السمو المعنوي والطهارة الفكرية، والإمام الجرجاني رحمه الله رغم تنبهنا عن بيئته العلمية والفكرية لم ينظر إلى الأدب والبلاغة من هذه الوجهة الغائية الشاملة، ورأى ذوق الإنسان للكلام الرفيع حتميا لإنسانيته، كما عارض من يتمسك بالصرفة بعد دحضها قائلا: "ومن وضع نفسه في هذه المنزلة، كان قد باعدها من الإنسانية" (دلائل الإعجاز، 526)

ومن أسباب عدم عنايته وأمثاله بهذا ممن تكلموا عن البلاغة من العلماء القدماء هو نظرهم إلى التراكيب اللغوية دون وحدة النصوص وإلى الأبيات الشعرية دون القصيدة وإلى آيات القرآن دون وحدة السور، وإن كان في نظرية النظم قدرة النقد للنص بكامله، والرافعي ينظر إلى النص نظرة شمولية ثم ينقده من حيث ثمرتها الشعورية المعنوية الإيقاعية ومن حيث تروية هذه النصوص الظماً الروحي الكامن في الإنسان.

فهو يستخدم في داخل نفسه نظرية النظم لفهم جمال النص بل هي غريزة إنسانية يستخدمها الجميع في فهم المعنى الأولي للكلام الذي يسمعه، وإذا أهملها لم يفهم مغزى الكلام، والرافعي أيضا لا يمكن أن يهمل النظم الذي يقصده الجرجاني، ولكنه يدخل فيه لفهم الكلام وبيانه ثم يخرج منه ليرى ماذا صنع هذا الكلام المنظوم من جمال لغوي وتأثير روحي عميق.

فإذا دخلنا إلى مبحث الإعجاز فقد رأينا الرافعي يتكلم عن موسيقية القرآن وصوت الحس فيه الذي يعتبر وجوده في جميع القرآن بدون تمييز بين تركيب وآخر، ورأينا الإمام الجرجاني يتكلم عن نظرية النظم وإعجاز التراكيب القرآنية، وإن كان ذلك موجودا في جميع القرآن، ينظر إليها واحدا واحدا بفحص علاقة بعض كلماتها لبعض وجعل بعضها بسبب من بعض، وأكبر ما تصل وحدة النظم الواحد

هو التراكيب ذات الصور التي ترتبط الصورة الثانية الصورة الأولى بنظم واحد، يقول البدرأوي زهران مؤلف "محاضرات في علم اللغة العام" أن أنواع النظم عند عبد القاهر الجرجاني سبعة:

1. النظم الفاسد، مثلا ضرب إلى بكى
2. النظم الخاطئ: أكتبت هذا الكتاب (بل يسأل أنت كتبت هذا الكتاب)
3. النظم الصحيح مجرد الصحة
4. نظم لا يحتاج إلى فكر وروية في سبيل من عمد إلى لآئ فخرطها في سلك واحد، كقولنا زدك الله التقوى وغفر ذنبك وسدد خطاك.
5. نظم يدق فيه النظر ويغمض فيه المسلك، كقول امرئ القيس:
6. كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي
7. الجمل المتداخلة والممتدة، كما في القرآن: إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5) (سورة الزلزلة)
8. التراكيب ذات الصور والتي ترتبط الصورة الثانية فيها الصورة الأولى، وذلك موجود في القرآن فقط.

فغاية ما يضع عبد القاهر الجرجاني تركيزه عليه هو هذا السابع والسادس، ولا يقع نظره إلى العلاقة بين مقاطع سور القرآن التي تبين مختلف الموضوعات في سورة واحدة، وهذه النظرة الجزئية لما مكّنه من تبين الأسرار في تراكيب القرآن الجزئية فقد ضاعه الخير الكثير من عدم اعتبار السورة أو القصيدة

بالكلية، وذلك لأن الجمال يتجلى لما يظهر الاتساق بين المعنى والمعنى والمقطع بالمقطع الآخر وسورة واحدة بالسورة التي تليها، وهو الذي انهر أمام بيت امرئ القيس لما وجد المزاوجة والتشبيه بين معنى مجموع ومعنى آخر مجموع.

ومن هنا نقول إن الإعجاز الذي اعتنى به الجرجاني في كتابه هو "الإعجاز البلاغي" حينما اعتنى الرافعي ب"الإعجاز الأدبي"، وكلاهما إعجازان متغايران، لأن الأول ينظر إلى التراكيب القرآنية والثاني ينظر من الحرف إلى الكلمة ثم إلى التركيب ومن ذلك إلى السورة ومنها إلى جميع القرآن، والثاني يستعين بالأول في فهم إعجاز التراكيب، والإعجاز البلاغي صالح للتعليل في أسبابها إلى حد، وذلك بما قرره الجرجاني رحمه الله في الدلائل وغيره من البلاغيين، ثم يحكم إلى الذوق في فهم الفارق بين القرآن وغيره، لأن الإعجاز بعد تعليل أسباب البلاغة شعوري، لأن العجز شعور إنساني، وبذلك نجيب محمود شاكر رحمه الله لقوله أن عبد القاهر لم يقدر أن يبين ذلك الحد الفارق بين القرآن وسائر فنون البلاغة.

يقول مصطفى صادق الرافعي رحمه الله: " لا جرم كان القرآن في نظمه وتأليفه وتركيبه على الأصل الذي أومأنا إليه: نمطا واحدا في القوة والإبداع، ولا يقع منه على لفظ واحد يخل بطريقته، ما دامت تنعطف على جوانب هذا الكلام الإلهي وما دام في موضعه من النظم والسياق"، نعم اهتم الرافعي بنظم جميع القرآن ولكن كان ذلك النظم الذي عناه راجعا إلى اللفظ أولا ولم يجهل الترابط بين المعاني، وخاصة قد ذيل في كلامه حول روح التركيب القرآني "من أعجب ما اتفق في هذا القرآن من وجوه إعجازه أن معانيه ترى في مناسبة الوضع وإحكام النظم مجرى ألفاظه على ما بيّناه من أمره" وأشار إلى تفسير الإمام الرازي رحمه الله ومحمد عبده و"نظم الدرر في تناسب الآي والسور" للإمام برهان الدين البقاعي رحمه الله الذي صنّفه خلال أربع عشر سنوات.

فهذا الإعجاز الأدبي عند مصطفى صادق الرافعي يتذوق ويتعرف عليه خلال معايير النقد وخلال نظرية النظم أيضا، والإعجاز البلاغي عند عبد القاهر يتعرف عليه خلال معيار نظرية النظم، ولكن نظريات النقد الأدبية مختلفة مشاربها حسب التيارات الفكرية التي أسس عليها الناقد فكره، وهنا تكمن المشكلة في الإعجاز الأدبي، وهو أننا كيف نختار نظرية نقدية لفهم النص وموازنته مع غيرها، وقد أسس الرافعي فكرته النقدية في مقالته "الأدب والأديب" الذي نشر بعد في وحي القلم، وهي قائمة على توق الإنسان للمثل الأعلى، وهو يطلب الجمال والاتساق والحق والخير في القطعة الأدبية الرفيعة، وتنجح على قدر ما تروي هذا الظماً الروحي للمثل الأعلى، ولكن هل يقرّ كلّ أحد على هذه النظرية النقدية التي تقوم على أساس الجمال؟

ومن هنا نرى ميسس الحاجة أن يصرف علماء الإسلام نظرهم إلى النظريات الأدبية والنقدية أيضا، وكما فعل عبد القاهر في الاحتجاج على نظرية النظم بأحقيتها في فهم التراكيب يحسن أن تقدم نظرية نقدية صحيحة بطابع علمي محايد في فهم النصوص الأدبية ويحتج على أحقيتها في فهم أدبية النصوص، ونرى في هذا البحث أن نظرية عبد القاهر هي نفسها صالحة ليكون تلك النظرية التي تكون معيارا في فهم النصوص، ولكن بوجهات سنضيفها أو سنجلها عنها في مبحث "غرض النظم وموسيقية القرآن".

### المبحث الرابع: إعجاز الحرف وموسيقية القرآن

يقول عبد القاهر الجرجاني "ومما يجب إحكامه بعقب هذا الفصل الفرق بين قولنا "حروف منظومة" و"كلم منظومة"، وذلك أن نظم الحروف هو تواليا في النطق، وليس نظمها بمقتضى عن معنى ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل في

نظمه لها ما تحراه، فلو أن ناظم اللغة كان قد قال "ريض" مكان "ضرب" لما كان في ذلك ما يؤدي إلى الفساد" (دلائل الإعجاز، ص 49).

واضح من هذا النص أن عبد القاهر الجرجاني رحمه الله لم ير في الحرف تأثيراً في معنى الكلام لأنه بوضع الواضع لها صار في صورته ولا ضابط له إلا ذلك حتى يتغير ويؤثر في كلام الأديب، ولكن عبد القاهر لا ينكر فضل مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان أن تكون فضيلة بلاغية، إذ يقول "واعلم أنا لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلاً فيما يوجب الفضيلة وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز، وإنما الذي ننكره ونفيل أمر من يذهب إليه أن يجعله معجزاً به وحده ويجعله الأصل والعمدة فيخرج إلى ما ذكرنا من الشناعات" (دلائل الإعجاز، ص 522).

حينما الرافعي رحمه الله يقول: "كل الذين يدركون أسرار الموسيقى وفلسفتها النفسية، لا يرون في الفن العربي بجملته شيئاً يعدل هذا التناسب الذي هو طبيعي في كلمات القرآن وأصوات حروفها، وما منهم من يستطيع أن يغمز في ذلك حرفاً واحداً، ويعلو القرآن على الموسيقى أنه مع هذه الخاصية العجيبة ليس من الموسيقى" (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 176). وجد العرب في القرآن ألحانا سلبت عقولهم وحاورت مع أذواقهم أن هذا النص لا يصدر عن قول البشر، إن هو إلا وحي أنزله رب السموات على هذا القرشي الهاشمي محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد وجدت في القرآن هذه الخصوصية الموسيقية لأنها أعطت لكل حرف حقه، ولأن حروفه مرصوفة كذلك، كأن عدل الله اقتضى أن تؤتى حتى الحروف حقها، وهذه الموسيقية تتواءم مع مضامين النص، إن كانت الآيات وعيدا للكافرين أو يبين هول القيامة فيقاعها الصوتي أيضاً يورث الخوف والرعب في نفس السامع،

وإن كانت تتحدث عن أحكام المكلفين كالزكاة والصلاة ففي موسيقية خفيفة يستمع إليها السامع، وهكذا تنسجم إيقاع السور مع معانيها.

وهذا سيد قطب يتحدث عن سورة الضحى أنها لمسة من حنان ونسمة من رحمة وطائف من ود ويد حانية تمسح على الألام والمواجع(12\_1879، في ظلال القرآن) وعن سورة الشرح أن فيها ظل العطف الندي وروح مناجاة الحبيب وعن سورة العاديات أنها لمسات سريعة عنيفة ينتقل من إحداها إلى الأخرى قفزا وركضا ووثبا، ويقول عن جزء "عمّ" عامة أنها طرقات متوالية عن الحس لنوم غارقين في نومهم أو سكارى مخمورين، هكذا يتحسس سيد قطب رحمه الله الإيقاعات المختلفة في السور القرآنية، ولا بد أن ننبه أن موسيقية الرافي موجودة في جميع القرآن لا في سورة دون أخرى وذلك لتناسب حروفها مع جاراتها في الصوت.

ومما ساهم في موسيقية القرآن فواصل الآيات كما أنها في الشعر القوافي، ولكن السورة الواحدة لا تنتهي بفاصلة واحدة في جميع الآيات، بل يتغير من نون إلى ميم إلى راء، والقرآن ترسيل واتساق وتطويل على حد تعبير الرافي، وليس له قاعدة موسيقية كما في بحور الشعر، يقول د.علي عيسى العاكوب في كتابه(العاكوب، د. عيسى علي، العاطفة والإبداع الشعري: دراسة في التراث النقدي عند العرب إلى نهاية القرن الرابع الهجري، دار الفكر الفكر المعاصر، 2002). أن موسيقا الشعر العربي يتفجر عن ثلاثة عناصر:

1. الإيقاع الصادر عن التفعيلة
2. الوزن الذي هو مجموع تفعيلات البيت
3. القافية

فليس في القرآن الكريم تفعيلات يمرّ عليها، وإذا وجدنا تفعيلة فهو مصادفة كما في قوله تعال "فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ"، فإنه على بحر الطويل:

فعول مفاعيل فعول مفاعل فعول مفاعيل فعول مفاعل

ولكننا لا نقرأ هذه الآية على وزن الشعر ولا نتغنى به بل نجود الآية فندغم النون في الشين ونمد المد وهكذا، فهنا قد ذهبت تفعيلات البحر وبقيت موسيقية القرآن، وهذا ما عني الرافعي بتمييز موسيقية القرآن عن موسيقية الشعر.

فإذا نظرنا إلى عبد القاهر وماذا سيقول عن موسيقية الرافعي سنرى أن شرطه الأول الذي هو وجود هذا الوجه في جميع القرآن متحقق، والمشكلة الثانية أن هذه الموسيقية لا تعلق لها بالكلام وبمعناه كما هو رأيه في مذاقة الحروف وعدم ثقلها بدليل ما نقلنا عنه، سنبحث عن هذه المشكلة في مبحث "غرض النظم وموسيقية القرآن".

### المبحث الخامس: إعجاز الكلمة وفصاحة اللفظ

يسأل عبد القاهر الجرجاني رحمه الله في قضية فصاحة الألفاظ أنه هل يقع في وهم أحد أن تتفاضل الكلمتان المفردتان إلا من جهة الاستعمال والألفة دون الغرابة والوحشية وجبهة خفة الحروف وامتزاجها الطبيعي دون ثقل الحروف، وعبد القاهر لا ينفي فصاحة الألفاظ بهذا المعنى، ولكنه يسأل هل يكون معنى لفصاحة اللفظ إلا أن ينظم في تركيب، وخاصة الأدباء لا يستعملون الكلمات الوحشية ابتداء رغم تمثيل بعض علماء البلاغة ببعض الكلمات الركيكة في كلامهم لأنها كانت نادرة جداً، فضلاً أن تعطى هذه الأهمية في البلاغة، ومن الأمثلة التي جاء بها الجرجاني رحمه الله بيت الصمة بن عبد الله القشيري:



تلفت نحو الحي حتى وجدتي وجعت من الإصغاء لبيتا وأخدعا

### وقارنه ووازنه مع بيت أبي تمام:

يا دهر قوم من أخدعك، فقد أضججت هذا الأنام من خررك  
(نرى في البيت الأول موقع لفظ "الأخدع" متلائما مع جاراته، حينما في الثاني يبدو  
قلقا)

ولا يرى عبد القاهر الجرجاني فصاحة لفظ بوحده في أي كلام، ولكنه هل  
يقر فصاحة اللفظ في التركيب غير الراجع إلى المعنى بل إلى موسيقية النص؟ ونفهم  
موافقته لذلك من اعترافه بفصاحة اللفظ بوحده في امتزاج الأحرف، ولكنه لا يعير  
اهتماما بالغا لذلك الجانب، وهذا الجانب هو موضع تركيز الرافي رحمه الله، وهو  
لا يهتم بموقع المعنى كثيرا، بل بتلاؤم كلمات القرآن مع جاراتها في موسيقية القرآن،  
وسؤال الجرجاني يكون هنا أن هذه الموسيقية ليس أصل الإعجاز، بل مما يؤيد  
الإعجاز، والرافي أيضا لا ينظر إلى الموسيقية وجها للإعجاز بوحدها، بل بما  
يضاف إليه من صوت الحس وروح التركيب الواحد في جميع القرآن، وخير ما مثل  
الرافي لهذا الجانب هو آية "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الْطُوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ  
وَالدَّمَ ءآيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ" (الأعراف - 133)، يذهب رونق  
الآية إذا قيل "الجراد والقمل والضفادع والطفوفان والدم" ويبين الرافي سبب  
ذلك (أنظر الإعجاز والبلاغة النبوية، 192)

يقول الإمام الباقلاني: "إن الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في  
النفوس، وإذا كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على  
المراد وأوضح في الإبانة عن المعنى المطلوب ولم يكن مستكره المطلع على الأذن ولا  
مستكره المورد مع النفس" (إعجاز القرآن، الباقلاني). ويقول فندريس في كتابه اللغة:

"والانفعالية في اللغة تعبر عن نفسها على وجه العموم بصورتين: باختيار الكلمات والمكان الذي يخصص لها في الجملة، يعني أن معنى اللغة الانفعالية الأساسيين هما: المفردات والتنظيم" (اللغة، فندريس، ص 186).

والجرجاني رحمه الله يرى حسب فهمه العلاقة بين الفكر واللغة أنّ الألفاظ ليست مما يعتنى به مجردة، إنها تكسب الأهمية حين كونها في داخل نظم الجمل، فتخير الألفاظ عنده جارٍ في نفس الأديب قبل أن تخرج إلى المعنى، وإنما جل عمله في ترتيب هذه الألفاظ حسب غرضه في الكلام على أصح وجه، ونرى أن الجرجاني يرى في الأديب الصانع للنظم أديبا طبيعياً لا يحتاج إلى فكر في اختيار الكلمات، بل هو ملكة راسخة في نفسه، وعمله كله في ترتيب ما نبع في ضميره من فكر.

وعملية النظم واقعة قبل حدوث الكلام الأديبي، فهنا لا يحتاج إلى اختيار الكلمات لأن سيل الألفاظ طبيعي عنده، وتحليلنا بعد حدوث الكلام الأديبي لهذه القطعة يحتاج حقا لتحليل مدى تناسب ألفاظه للغرض الأديبي، لأنه إن كان الأديب طبيعيا سنفهم مدى عبقريته حتى نقيم نصه، وإن كان صناعياً سنفهم مكان الصنعة في الكلام وهل هو نجح في صنعته أو لا؟، وهذا مما أهمله الجرجاني من النظر فيه، وإذا أضفنا إلى نظرية النظم هذه الحيثية مع الحيثيات التي سأضيفها ستكون قابلة لنقد النص الأديبي الشامل، إن شاء الله.

ومن صفات المفردة الشعرية التي تكتسب بمجيئها النص رونقها وبهائها

وبهجتها:

1. الخفة والسهولة والرشاقة

2. استيفاء اللفظ الطويل في الموجز القليل

3. الموافقة للاستعمال (العاكوب، د. عيسى علي، العاطفة والإبداع الشعري: دراسة في التراث النقدي عند العرب إلى نهاية القرن الرابع الهجري، دار الفكر الفكر المعاصر، 2002).

ومما نرى أنمصطفى صادق الرافعي لا يعطى أهمية نظرية للثاني من هذه الصفات، وهو استيفاء اللفظ الطويل في الموجز القليل، وإن رأيناه يستعمل ذلك في موازنة آية "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" مع قولهم "القتل أنفى للقتل"، وهذا ما يسمونه ب"انضغاط الدلالة المفردة الشعرية"، ومثلوا لذلك قول الشاعر:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته      وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

**ووازنوه مع قول أحدهم:**

من راقب الناس مات هما      وفاز باللذة الجسور

وهنا البيت الثاني تضمن ما في البيت الأول مع قلة كلماته، ولكن ما سيقول الجرجاني هنا واضح، وذلك أن ما كان من اختصار المعنى كان من النظم لا من اللفظ وحده، كما هو أشاد في كلمة الأطراف في بيت: أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ولا ينظر الغادي الذي هو رائج

بأن كلمة "الأطراف" ضمّنت ما سيكون بعد فراغ الحج من طيب الكلام والراحة، وذلك كله ليس من لفظ الأطراف، بل من السياق والنظم.

**المبحث السادس: إعجاز الجمل وصوت الحس**

النظم لا يتألف إلا في الجمل والتراكيب، والجرجاني لا يرى الإعجاز إلا في التراكيب، وهو الذي يعبر عن فكر الإنسان من داخل القلب ويصنعه إلى الكلمات، أي أن

النظم ليس إلا تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض، وليست الاستعارة والتشبيهات إلا من مظاهر النظم في حسن تركيب الكلمات على ترتب المعاني في النفس، والرافعي يبدأ تذوقه من الحرف إلى الكلمة ثم إلى الجمل من جهة المعنى والصوت حينما الجرجاني لا ينظر إلى اللفظ والحرف إلا ضمن التركيب في جهة المعنى فقط، ولكن الاثنان يتفق في اثنين أن الأحرف والألفاظ لا تعملان شيئاً بنفسهما، وعند الجرجاني رحمه الله النظم تسمو مكانته إلى حد لا يبلغه الإنسان، وذلك حد الإعجاز، ولا يعرف ذلك إلا بالذوق البياني.

وحينما نسبر معنى "صوت الحس" عند الرافعي نعلم أن صوت الحس حالة تذوقية يشعر بها قارئ القرآن الفاهم لمعناه، يقول: "لا يكون (صوت الحس) إلا من دقة التصور المعنوي والإبداع في تلوين الخطاب ومجازبة النفس مرة وموادعتها مرة واستيلائه على محضها بما يورد عليها من وجوه البيان أو يسوق إليها من طرائف المعاني"، وكان العرب يتوقون لهذه المرحلة في صناعة الكلام، ولكن لم يمكنهم ذلك، ولم يتذوقوا صوت الحس إلا في القرآن الكريم، وهذه المرحلة التذوقية نتيجة تراكمية لموسيقية القرآن وصوت العقل ومعاني القرآن، وهذه الحالة تستولي على النفس الإنسانية بما فيها من موسيقية وجرس الحروف وأدبية النص.

أشار الرافعي إلى الأصوات الثلاثة، إنه يريد بها:

1. صوت النفس

2. صوت العقل

3. صوت الحس

أمّا صوت النفس فهو الصوت المؤلف من النغم بالحروف ومخارجها وحركاتها ومواضع ذلك من تركيب الكلام ونظمه على طريقة واحدة على حيثية أنّ الكلمة

تمهيد للمعنى، ويريد بصوت العقل ذلك الصوت المعنوي الذي ينتج عن دقائق التركيب في جملة الكلام ومن الوجوه البلاغية، يقول مصطفى صادق الرافعي "أما صوت الحس فقد خلت لغتهم من صريحه وانفرد به القرآن وقد كانوا يجدونه في أنفسهم منذ افتنوا في اللغة وأساليها ولكنهم لا يجدون البيان به في ألسنتهم، لأنه من الكمال اللغوي الذي تعاطوه ولم يعطوه، وإنما كانوا يبتغون الحيلة إليه بألوان من العادات وضروب من التعبير النفسي" (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 182)

### المبحث السابع: النظم بين الجرجاني والرافعي

بحثنا في الفصول السابقة عن نظم الجرجاني والرافعي تفصيلاً، وفهمنا أن نظم الجرجاني يصل إلى حد الإعجاز بعد مراتب من البيان يقدر عليه الإنسان الأديب أو البليغ، ونظم الرافعي يبحث عن القرآن من البداية، والذي يبدأ من نظم الحروف إلى الكلمات وإلى الجمل في موسيقية مناسبة لحالة معنى النص مع احتواء صوت الحس وروح التركيب الواحد.

ونحن أشرنا سابقاً أن مصطفى صادق الرافعي يبحث في الإعجاز ما يخص القرآن دون غيره، فوجد الإعجاز في موسيقية القرآن من غير استعانة بالألحان وأوزان الشعر العربي وصوت الحس الذي يجده متذوق القرآن، حتى في الآيات التي ليس فيها أي استعارة أو مجاز تحضر لدى القارئ صورة معنى النص وتستولي عليه ولا يشتمط في أي غرض من الإفراط في الشعور أو التفريط فيه، بل يمضي على سنن واضح معتدل.

وخلاصة القول أن نظم عبد القاهر الجرجاني يدخل من نظم الكلام العادي إلى البلاغي والأدبي ثم إلى الإعجازي، وكلها مراحل ذوقية يستدل عليها بما قرره في علم المعاني والبيان حسب اصطلاحنا خلال كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار

البلاغة، والرافعي بدأ من الكلام الإعجازي بسبر خصائصه، فوجد ما وجد، وكلا المنهجين نجحا ولو بحد قليل في بيان أسرار الإعجاز.

### المبحث الثامن: غرض النظم وموسيقية القرآن

إن ميزة مصطفى صادق الرافعي في الإعجاز هو اهتمامه بموسيقية القرآن، والجرجاني لم يعتبر ذلك الاهتمام البالغ لموسيقية النص أو ما يتعلق بها من جرس الحروف وسهولتها وإن لم ينكرها، ولكن حسب نظرنا أن نظم الرافعي إن هو أغنى في تذوق موسيقية القرآن لا يغني في فهم بلاغة النص، ولذلك نرى أن ندمج بين نظرية الرافعي والجرجاني لنصل إلى مستوى شامل من الإدراك حول الإعجاز، وذلك من خلال "الغرض" الذي نفصل فيه هذا المبحث.

يكون لكل نص أدبي غرض، وذلك الذي يعبر خلال النص، وهذا الغرض ينبع في قلب الأديب سواء كان شاعرا أو كاتب النثر، وهذا الغرض لا يكون مجرد معنى دلالي، بل شعورا يأتي من القلب من الحماس والوجد والحنين والحنان والراحة والاضطراب والحب والغضب، وهذا الشعور يكيف الغرض في سمة معينة، يقول ابن عبد ربه في العقد الفريد "وزعمت الفلاسفة أن النغم فضل بقي من المنطق لم يقدر اللسان على استخراجها فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع، فلما ظهر عشقته النفس وحن إليه الروح [العقد الفريد، الجزء الثالث ص 177]

ومن هنا كان الشعر عنصرا قويا في تعبير مشاعر الناس لأنه يعبر شيئا بقي في القلب في أصالته، يقول أبو هلال العسكري " أنه (الشعر) ليس شيئا يقوم مقامه في المجالس الحافلة والمشاهد الجامعة، إذا قام به منشد على رؤوس الأشهاد، ولا يفوز أحد من مؤلفي الكلام بما يفوز به صاحبه من العطايا الجزيلة والعوارف السنوية، ولا يهتز ملك أو رئيس كما يهتز له ويرتاح لسماعه" [الصناعتين ص 143]

[تخصص بحور الشعر ببعض الأغراض دون غيرها، مثلا يستعمل البحر الطويل للفخر والحماس وسرد الأحداث ووصف الأخبار" والبحر البسيط يقرب من الطويل ولكن لا يتسع مثله لاستيعاب المعاني ولا يلين لينه للتصرف بالتراكيب الألفاظ ومن وجه آخر يفوقه رقة وجزالة والكمال أتم البحور وأقرب إلى الشدة والوافر هو ألين البحور والخفيف أخف على الطبع وأكثر سهولة وأقرب انسجاما والرمل وجود نظمه في الأحزان والأفراح والزهريات.

وقد اتضح هنا أن نفسية الأديب تؤثر تأثيرا عميقا في اختيار البحر وقالب النظم، وهذه النفسية هي التي تبني الأغراض الشعرية، وتتفجر خلال موسيقية النص والبحور والأنغام، أي ذلك فضل بقي من الكلام، ليس لها في اللغة ألفاظ، بل أنغام وموسيقية، يقول الدكتور عيسى علي العاكوب: "وكان الوزن يوحى إichاء عاما لتجربة الشاعر ثم يأتي اللفظ الذي يحدد بدلالته المحتوى المحتوى الشعوري والسيما الخاصة للتجربة الشعرية"[العاكوب، د. عيسى علي، العاطفة والإبداع الشعري: دراسة في التراث النقدي عند العرب إلى نهاية القرن الرابع الهجري، دار الفكر الفكر المعاصر، 2002]

رکز مصطفى صادق الرافعي رحمه الله نظره على جانب الموسيقى في القرآن، والموسيقا تعبير عما في ضمير القائل من فضل كلام بقي من مشاعره، وموسيقا القرآن مقصودة لذاتها في تأدية معنى النص، وليس فضلا زاد عليه، وهذه الموسيقى جانب من جوانب غرض الأديب كما كان معنى النص الدلالي جانبا من جوانب غرضه، يقول كروتشه "إن المضمون والصورة يجب أن يميزا في الفن، لكن لا يمكن أن يوصف كل منهما بأنه فني، لأن النسبة القائمة بينهما هي وحدة ما فنية، أعني الوحدة، لا الوحدة المجردة الميتة، بل الوحدة العيانية الحية التي ترجع إلى التركيب القبلي[المجمل في فلسفة الفن، الطبعة الثالثة، ص 63-64]، يعني أن

الموسيقى التي هي من صورة الفن لا يفصل عن المضمون أي المعنى الدلالي، لأن كليهما يجسد الفنية، لا وحدهما دون الآخر.

فمن هنا نقول إن النظم يجب أن يعتبر المضمون والصورة لأن كليهما يصنع الجمال الفني لا وحدهما، والجرجاني رحمه الله ركز على جانب المضمون ولا ندعي أبداً أنه أهمل الصورة بل لم يعطها الاهتمام الذي يستحقها، والرافعي ركز على الجانبين الصورة والمعنى خلال إعجاز الحروف وصوت الحس وروح التركيب، ولكن جانب المعنى لا يتبين السحر فيه بالإشارات التي قدمها، ويجب أن يضاف إليها نظم الجرجاني.

وقد أشرنا سابقاً في مبحث "الأدب والبلاغة والإعجاز" أن نظرية الجرجاني في النظم تصلح أن تكون معياراً لنقد أي نص أدبي كما هو صالح لنقد أي تركيب بلاغي، إننا نختار هذه النظرية دون غيرها لأنها تنبع من أصل لغوي، ليس فيها فلسفة مسبقة تقوم على أحد من الفضيلة أو غيرها من المعاني مثل ما قدمه الرافعي، وأهمية نظرية الجرجاني في إعجاز القرآن هو أننا نحتاج لهذه النظرية لنقوم على أساس محايد، ولكن نظرية النظم على حالتها الأولى غير كافية لنقد النص، بل لا بد أن نضيف إليها بعض الجهات التي سنبينها.

أولاً، نضيف إليها جانب الغرض، فإذا ندخل داخل معايير النقد موسيقياً النص والقافية والبحور وجرس الحروف وسهولة الكلمات، وثانياً نضيف إلى نظرية النظم وحدة النص، وهذه الوحدة تنبني على وحدة التراكيب التي هي من نظرية النظم، فيدخل فيه روح التركيب الذي فصله الرافعي وصوت الحس.

فالإعجاز اللغوي إعجازان: إعجاز بلاغي وإعجاز أدبي، وفي الإعجاز البلاغي تزداد أهمية نظم الجرجاني وفي الإعجاز الأدبي تزداد أهمية الموسيقى



وأهمية وحدة النص وصوت الحس، ونظم الرافعي صالح للإعجاز الأدبي أكثر من الإعجاز البلاغي، ونظم الجرجاني صالح للإعجاز البلاغي أولاً ثم إذا أضفنا إليه جانب الغرض وجانب وحدة النص سيكون فلسفة نقدية لبيان إعجاز القرآن الأدبي إن شاء الله.

### خاتمة

رأينا في هذا البحث أهمية مبحث الإعجاز في الدراسات القرآنية، إذ هو دائرة البحث لكثير من علماء الإسلام الذين مضوا من المتكلمين وعلماء التفسير وعلوم القرآن والبلاغيين، وحققنا حول حقيقة الإعجاز ومعنى آيات التحدي، فمما لا ريب فيه أن القرآن الكريم معجز للبشرية وقدرتها، لأنه فوق القوى الإنسانية الإتيان بما يماثل سوره وآياته، وليس هو دليلاً تاريخياً في أصله، بل نستعمل تاريخ عجز العرب لمعارضة القرآن بدليل تفوقهم في اللغة ونبوغهم في فن الشعر والخطابة ورغم ذلك لم يستطيعوا أن يغلبوا القرآن.

وإذا تحقق أن القرآن معجز فيبحث عن وجه الإعجاز، وقدّمنا رأي الجرجاني في وجه الإعجاز، إنه يقول إن هذا الوجه يجب أن يكون وصفاً متجدداً وموجوداً في جميع القرآن، ومن هنا لا يعترف بالإعجاز العلمي أو التشريعي أو الغيبي كمناط للتحدي، والباحث يرى أن هذا المذهب هو الصحيح، لأن المثلية في آيات التحدي يجب أن يكون شيئاً معلوماً للعرب الذين تلقوا القرآن وأن يكون موجوداً في جميع القرآن.

ولكن لا نستبعد الإشارات الكونية في القرآن الكريم وجعلها دلائل النبوة أو معجزة بمفردها لأنها ظهرت في القرآن الذي أنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والرافعي لا يدخل في مبحث حصر مناط التحدي، ولكنه دخل في مبحث

النظم قائلاً أنه يفصل عن سرّ الإعجاز الذي يتميز به القرآن، فهو قد سعى أخلاق القرآن بالإعجاز الأدبي لأنه لا يتعهد أن يكون كلمة الإعجاز غير مستخدمة في غير مناسبات التحدي، والجرجاني يتعهد ذلك.

وصلنا بعد هذا أن الإعجاز اللغوي هو مناسبات التحدي، ومن هنا بحثنا عن نظرية نظم الجرجاني ونظم الرافعي، وانتهينا أن الإعجاز اللغوي قسماً: الإعجاز الأدبي والإعجاز البلاغي، ونظم الجرجاني صالح لفهم الإعجاز البلاغي على بقائه في حاله بحد كبير غير أن الإعجاز الأدبي لا تغني نظريته فيه إلا إذا أضيف إليه جانب الغرض الذي تتبع عنه موسيقية القرآن وجانب وحدة النص الذي يربط بين التراكيب القرآنية.

فإن نظرية النظم كما أنها معيار للإعجاز البلاغي هي صالحة لتكون فلسفة نقدية بتقرير أن اللغة هي علاقات بين الكلم وتعبير عما في ضمير الإنسان، وحسب نجاح الأديب في التعبير عما في ضميره من معنى شعري راق تنال القطعة الأدبية رونقها وصفاءها، وخصوصية نظرية النظم في النقد هو كونها نظرية مجردة عن أي فضيلة مسبقة أو فلسفة مسبقة.

لأننا نرى مصطفى صادق الرافعي رحمه الله يتجه في مقالته التي تحدث فيها عن معنى الأدب ووظيفة الأديب يرى أن الأدب اجتهاد الإنسان ليصل ويتذوق المثل الأعلى في الجمال والحق والاتساق، وهذا يقرب مع فلسفة عالم الأفكار الأفلاطوني، حينما الجرجاني يحكم النظم إلى ذوق الإنسان المجرد، ولا يفسر أسباب تذوقه، وهو خير من جهة لأن تفسير أريحية الإنسان في تذوق الجمال الأدبي كاشتياقه للمثل الأعلى لا يمثل نظر كثير من الناس المختلفين في آرائهم وتوجهاتهم الفكرية إلى الحق والجمال والاتساق، ومن الحقيقة التي لا يعترض فيها منازع عاقل

أن الإنسان رغم اختلاف فكرهم وآرائهم ولغاتهم يتذوق بعض مكونات النص دون الآخر كالتقديم والتأخير والمجاز والكناية والتمثيل.

فنظرية النظم قابلة لتكون معياراً لنقد التراكيب البلاغية والنقد الأدبي خاصة إذا أضيف إليها جانب الغرض حتى تدخل فيه موسيقية النص وجانب وحدة النص، ونفضلها على فكر الرافعي حول وظيفة الأدب لأن النصوص لا تستقل في إيصال فكرة جمالية بل بإقناع الحقائق والأحكام الفقهية والأخبار الواقعية أيضاً، وإن ضمن ذلك لا يتوافق مع آراء الناس المسبقة حول وظيفة الأدب فيقولون عن الإعجاز أن هذا وجهتكم ونحن لنا وجهتنا.

ولا بد أن ينبه أن حد الإعجاز مرحلة تذوقية بحتة ولا شك فيه عند الباحث، والإنسان مهما اجتهد أن يضع أصبعه على مكنن الإعجاز في موضع من الآية أو مقطع سورة لا يتعدى إلا أن يكون مظهراً بلاغياً أو جمالياً يشارك فيه القرآن الكريم مع غيره، والرافعي رحمه الله واع تمام الوعي حول هذه الحقيقة حينما بحث خاصية نص القرآن دون غيره فوجد موسيقية القرآن وصوت الحس وروح التركيب، ولكن لا يمكننا أن نقول إن هذا وجه الإعجاز لأن تلك الوجوه لا تقوم بذاتها بل بمجموعها يصل إلى حد الإعجاز.

ومن هنا نقول أن حد الإعجاز في الإعجاز البلاغي مرحلة تذوقية بحتة أكثر من كونه ذلك في الإعجاز الأدبي، لأن في الإعجاز الأدبي يمكننا أن نصف ذلك بمكونات عامة في النص بكلمات نقدية كموسيقية النص وروح التركيب وصوت الحس، وهذه كلها كلمات توحى إلى مكنن الإعجاز، ولكن ليس كافياً، والقرآن في هذا الشأن كغيره من النصوص الأدبية العالية، لأنه لا يمكننا أن نصف مكنن جمال النص وحد ذلك الجمال من غيره من النصوص إلا بالتحكيم إلى الذوق نهائياً.

## توصيات للبحوث القادمة

- القرآن الكريم كلام إلهي لا يوجد فيه إلا الصحيح نحوياً وبلاغياً وأديبياً، وفي جهودنا لتجلية إعجاز القرآن الكريم وشرفه وخصائصه لا بد أن نعطي أهمية كبيرة لتوضيح مشكلات القرآن ومهماته في النحو والبلاغة والأدب حتى لا تكون مانعاً في فهم الإعجاز.
  - إن الإعجاز الأدبي يجب أن يعطى أهمية كبيرة، وعلينا أن نتذوق النص في سورة كبيرة كاملة أو مقطع كبير بسبر خصائصه وروابطه وموسيقيته وإيحاءاته كما نفع ذلك في شعر جميل، وذلك حسب مواضع النص لأن البلاغة هو التعبير الجميل حسب مقتضى الحال، فالأحكام مثلاً لا تحتاج نصاً رباناً أو مفرقاً بل نصاً هادئاً في نغمه وشكله.
  - إن ما أضفنا إلى نظرية النظم من جانب وحدة النص وغرضه مبحث بذاته ولم نفصل القول فيه، وذلك يحتاج بحثاً مستقلاً.
- يجب أن نعطي أهمية في الدروس البلاغية التي تعقد في جامعاتنا وكلياتنا لفهم نظريات النقد المختلفة ولفهم موسيقية القرآن ولتذوق القرآن وسورها بمجموعها مع اشتغالنا بالتركيب القرآنية وتذوق الجمال فيها، وأنه يحسن في دروس النحو أن يزداد فيها علم المعاني كما في مؤلفات د. الصالح السامرائي.

## المصادر والمراجع

الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز مع الرسالة الشافية، تعليق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة.

الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، مكتبة المدني بالقاهرة.

الرماني، الخطابي، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، بتحقيق محمد خلف الله أحمد، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة.

الرافعي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، 1973.

الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، طبعة الهنداوي، 2012.

شاكر، محمود، مداخل إعجاز القرآن، مطبعة المدني-دار المدني بجدة.

العاكوب، د. عيسى علي، العاطفة والإبداع الشعري: دراسة في التراث النقدي عند العرب إلى نهاية القرن الرابع الهجري، دار الفكر المعاصر، 2002

البدوي، أحمد أحمد، عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي لمؤسسة المصرية العامة.

العمري، د. محمد، الموازنات الصوتية: في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر، أفريقيا الشرق 2001.

شرشير، د. محمد حسن، البناء الصوتي في البيان القرآني، الطبعة الأولى دار الطباعة المحمدية، 1988.

مندور، محمد، في الميزان الجديد، طبعة الهنداوي 2017.

مراد، وليد محمد، نظرية النظم وقيمتها العلمية، دار الفكر 1983

زيتون، علي مهدي، الإعجاز القرآني وآلية التفكير النقدي عند العرب، دار الفارابي

2011

اليمني، خليل محمود، "دراسة نظم القرآن: قراءة في المنجز وأفاق الاشتغال مع طرح

فرضية للنظم القرآني"، موقع مركز التفسير للدراسات القرآنية.

عبد القادر، كياس، مقالة "النظم الموسيقي في القرآن الكريم: قراءة في كتاب إعجاز

القرآن والبلاغة النبوية للرافعي نموذجاً". ASJP.

بويش، د.عز الدين، مقالة "حقيقة الإعجاز القرآني عند الرافعي". ASJP.

عزیزو، ياسين، مقالة "جهود مصطفى صادق الرافعي في بيان الإعجاز القرآني"،

ASJP

زهران، البدرأوي، محاضرات في علم اللغة العام، دار العالم العربي، 2008.

العيان، سعيد، حياة الرافعي، طبعة الهنداوي، 2020.

مندور، د. محمد، النقد المنهجي عند العرب في الأدب واللغة، طبعة نهضة

مصر، 1996.

الباقلائي، أبو بكر، إعجاز القرآن، مكتبة الشاملة.